الكاتب عن دخول شخصياته على هذه المرحلة من التاريخ بأناة ودقة ..

فالتاريخ الجديد لم يبدأ بفعل معجزة غيبية . ان قسم ما قبل الحرب كله يشكل بذرة لردود فعل الجماهير بعد الحرب ، ان عطوة ، الشرطي الذي التزم بالمقاومة بعد الحرب لم يفعل هذا نتيجة صحوة وطنية ميلودرامية ، فهو منذ البداية ضرب ابن الشيخ البدوي لانه يتحرش ببنات اريحا ، وهو ذاته الذي تساءل بزهو : « احيانا اتساءل لماذا خلقني الله فلسطينيا ؟ » فأتاه الجواب « هذا تكريم لا يحصل عليه جميع الخلق ـ ص ١١٦ »، وهكذا فان ما فعلته الحرب في عطوة ان نزعت السدادة عن وعيه الثوري فتدفق في جسم الثورة .

اما باسم العارف ابن الفلسطيني البرجوازي المدلل ، الذي كان ملتزما باحدى خلايا الثورة قبل الحرب دون اي فاعلية تذكر ، وجد بعد الحرب ان الامر جدي فعلا ، فاقترح تجميد التنظيم !

من الشخصيات التي كشفت الحرب عن جوهرها ايضا ، ندى ، فهذه الصبية الشجاعة التي تغلبت على خوفها ومشت في الشارع مع حبيبها قبل الحرب ، لم تجد حرجا بعد الحرب من ان تزوره في البيت ، على الرغم من انها ليست مرتبطة معه بخطوبة .

والاب الياس ، كذلك ، لم يكشف عن ايمانه بالعنف ضد الاحتلال الا بعد الحرب .

على ان التحول الاهم في تفكير محمود وحسن ـ وهما ضمير الكاتب كما لا يخفى ـ انهما قررا تصفية ضابط المخابرات احمد خطاب ، بعد الحرب مباشرة ، وهذا اول انتقال نوعي في تفكيرهما باتجاه مواجهة السلطة مباشرة بالعنف ..

يصوغ رشاد ابو شاور اريحا صياغة بين الرغبة والواقع ، فتأتي على هيئة اسرة واحدة ، في وجه اسرتين معاديتين : الاحتلال والسلطة .. على ان جو الاسرة ليس محكوما بالمتطلبات القبلية ، وان كانت تند احيانا ، وبشكل خاطف بعض الهنات التي توحي بشيء من الرواسب الشرقية ، وغالبا ما تبدو هذه الهنات عبر المزاج الذي وهبه رشاد للشخصيات التي يحبها ، مثلا يقول حسن : « لقد اكتشفت ان الحكومة مؤنث ـ ص ٢٥٠ » ، وكأن التأنيث عنصر انتقاص ، كذلك عندما يمزح محمود بشأن زواجه فيقول : سأتزوج من اجل الوالدة « .. ومن اجل غسل ملابس اخي محمد ... » .. ألهذا يتزوج الرجال ؟

استطاع رشاد ابو شاور ان يقدم ، من خلال « العشاق » ، عالما فنيا ينبض بزخم الحياة ويجتاز ، بالسلامة ، شعرة الصراط ، ولقد كان مهددا بالوقوع الى هذا الجانب او ذاك بين فترة واخرى ، الا ان وضوح ما يريد كان يعصمه دائما ، بل ان « ما يريد » كان من الوضوح بحيث يطفح احيانا ، فيصادر على الشرط الفني لحساب بعض الافكار والخواطر الجاهزة، ويمكن حصر هذه «التجاوزات» بالملاحظات التالية :

اولا ـ استسلام الكاتب ، في حالات نادرة جدا ، الى نوع من العفوية التلقائية بحيث يترك للقلم ان يسوقه الى هذه الشطحة او تلك

ثانيا ـ استباق الكاتب لشخصياته على افكارها ، ومرد هذه الملاحظة ، في معظم الحالات ، ان لم اقل دائما ، الى حماسة شديدة يصعب ضبطها